« فلسطينيات » :

الأب جريجوري ... !

للأستاذ نجاتي صـــدقي

(كلارا هاينز) فتاة يهودية ألمانية في الثلاثين من عمرها ... نشأت وترعرعت في (ليبزيغ) من أعمال ألمانيا . ولما بلغت الثامنة عشرة ، أحبت (ريشارد كراوز) أحد زملائها بمدرسة ليبزيغ الثانوية ، فعقدا النية على الزواج رغم مسيحيته ويهوديتها . غير أن هتلر استولى على الحكم — فجأة ، فانضم ريشارد إلى الشباب الهتلري ، وفرت كلارا إلى فلسطين .

* * *

وبينما كانت كلارا ذات مساء في زيارة صديقة لها في القدس ، ذهبت إلى قسيس روسي في الخامسة والخمسين من عمره يدعى (جريجوري فون فيخت) وينتمي إلى عائلة روسية ألمانية أرستوقراطية كان قبل سنة ١٩١٧ ضابطاً في الجيش الروسي ، ثم فر إلى فرنسا ، واشتغل في جريدة (الترانسيجان) ؛ وإذ حلت أزمة سنة ١٩٢٥ في فرنسا ، رحل جريجوري إلى فلسطين ، واندمج في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، بمثابة قس ... وكان رجلا متعلماً ذكياً ، يجيد اللغات الروسية ، والألمانية ، والفرنسية ، والانجليزية .

ودعى الأب جريجوري مرة لكي يلقي محاضرة خاصة في حفلة أصدقاء كلاره وصديقاتها فلبى الدعوة ، وكان موضوعه (دستويفسكي) واتجاهاته الدينية ، فأجاد فيها وأفاد ، وبرهن على أن دستويفسكي رجل صوفي يؤمن بأن الله هو المثل الأعلى للحق ، وأن روحه تكمن في الحب ، والجمال ، والعظمة ، والعبقرية في كل شيء بديع ... وإن الناس — في حبهم للفنون إنما يحبون روح الله المتجسمة في كل جزء من أجزائها ...

طربت (كلارا) لهذه المحاضرة . وأعجبت بالمحاضر ، وأمطرته بأسئلة كثيرة مستفسرة مستفهمة ... وعند الوداع سألته إذا كان يقبل إعطاءها دروساً باللغة الإنجليزية في بيته ، فرحب الأب جريجوري بهذه الرغبة ، ووعدها ألا يتقاضى منها أجراً ، لأنه رجل زاهد في الحياة ، لا تهمه المادة ما دامت الكنيسة تعنى بمسكنه وقوته ... !

وهكذا أخذت كلارا تتردد على بيت الأب جريجوري في القدس فتقرأ عليه الدرس الأول والثاني بالإنجليزية ، وكانت في هذين الدرسين تكتفي بجلب كتابها ودفترها ، وأما الدرس الثالث فقد ذهبت الفتاة لتتلقاه على أستاذها ، وهي تحمل حقيبتين تتضمنان كل ما لديها من ألبسة ومتاع ... !

قال « زيد » احتجت في أحد الأيام إلى ترجمة مادة إلى اللغة الإنجليزية فقيل لي : (عليك برجل روسي يدعى الأب جريجوري فهو مترجم من الطراز الأول ، فذهبت إليه وطرقت الباب ، فسمعت صوتاً من الداخل يقول (تفضل ... تفضل ...) ولما وطئت قدماي الغرفة وجدت في ركنها الأيمن رجلا ذا لحية شقراء طويلة ، وقد استلقى على سريره . فسألني أن أجلس وأفهمني بأنه يشكو قرحة في معدته ، وبعد ثوان دخلت علينا من غرفة داخلية فتاة فتانة ، آرية الهيئة ، خرنوبية الشعر ، عسلية العينين ، ممشوقة القد ، بارزة النهدين ، وكان وجهها إذ ذاك ممتقعاً وعيناها تميلان إلى النعاس ، وشعرها مشعثاً ، وقد علت شفتيها ابتسامة مغتصبة ، فمدت إلى أنامل طويلة رقيقة ، ورحبت بي ... فقلت للرجل : ألي الشرف بالتعرف إلى ابنتكم ؟ ... ففتح جريجوري من بين شاربيه ولحيته فماً وأصدر منه ضحكة مزعجة وقال : كلا إنها ليست ابنتي ... وأخذ يدها بين راحتيه وطبع عليها قبلة ... وإنما هي سكرتيرتي ... وزوجتي ... وهي يهودية ألمانية ...

لم يصدق الزائر ما سمع ، وراح يجيل النظر في جريجوري تارة وفي الفتاة تارة أخرى ، فاحتشدت في رأسه أسئلة عديدة حار في تعليلها ... أقسيس ويهودية ؟ أشيخ وصبية ؟ ... أقبح وجمال ؟ ... أموت وحياة ... إلهي ، كيف جمعت هذين الضدين ؟ وكيف وفقت بين هذين العالمين ؟

وخرج « زيد » من لدن الأب جريجوري وخرجت كلارا في أثره تشيعه ، ولما بلغا الباب الخارجي قالت له : — لقد أصبحت الآن من معارفنا ... فلا تبخل علينا بزيارات أخرى ... ورمقته بنظرة عميقة ساحرة ...

وأقفلت الباب ...

* * *

قضى « زيد » أياماً وليالى وهو يفكر فى أمر ذينك المخلوقين ، وكلما حاول تناسيهما عادا إلى مخيلته فتصور الأب جريجورى باحيته الراسبوتينية ، وهو يضحك ، ويتألم من مرضه ، وارتسم أمامه هيكل تلك المرأة الحسناء الغريبة الأطوار ، فأحس بدافع الفضول أو حب المعرفة يدفعه إلى القيام بزيارة خاصة لها فلعله يظفر هذه المرة بما يحل له تلك الرموز والمعميات ...

وإذ بلغ «زيد» باب بيت القس شم رائحة البخور تنبعث منه ، وسمع صوت تراتيل دينية تتصاعد من أرجائه ، فدفع الباب برفق ، وأطل برأسه إلى الداخل ، فشاهد الأب جريجورى يلفظ النفس الأخير ، ومن حوله رهط من الرهبان والراهبات الروس يصلون من أجل روحه وكلارا جاثية إلى جانب سريره تذرف الدمع السخين، فالتاع لهذا المشهد وارتد إلى الشارع مضطربا مذهولا .

ومضت أيام على الشاب العربى فى أثنائها أن الأب جريجورى مات ، وأن كلارا ظلت وحيدة حزينة فزارها مرة ليعزيها ، فاستقبلته بوجه شاحب وبعينين غائرتين ووجد عندها (قواصاً) كان من معارف زوجها ، وكان يعزيها بقوله : (موش لازم يبكى) موش لازم يزعل ... مافيش جوزك ، فى ... أنا !) ... ثم خرج القواص ، وجاء رجل آخر من معارف المرحوم أيضاً فسلم عليها وعزاها . ثم قال لها : —

(أوفدنى أبونا نسطاس كريا كوس رئيس دير (... ...) وسألنى أن أبلغك رسالة شفهية ... يقول لك أبونا إنه تأثر جداً لفقدك زوجك . وأن المرحوم كان من أصدقائه الحميمين ، ولما علم أنك غدوت وحيدة أحب أن يمد لك يد المعونة فهو يعرض عليك الإقامة فى جناح من الدير ويتعهد لك بكل ما يلزمك من ملبس ومأكل أفلا تلبين سؤاله ؟

فأجابته كلارا وقد أسندت رأسها بين يدها : قل لرئيسك إذا كانت كلارا قد تزوجت قسيساً وتوفاه الله فذلك لا يعنى أنها مستعدة لأن تتزوج رهبان ديره ... !

وتوطدت عرى الصداقة بين « زيد » وكلارا وعلم منها الشىء الكثير عن علاقتها بذلك القس الروسى الراحل ، علم منها أنه كان يعلمها اللغة الإنجليزية ، فسرعان ما سلبها عقلها بأحاديثه الطلية وبفلسفته الصوفية ، وبآرائه الاعتزالية ، فسألته بأن تتلمذ على تعاليمه ، فسألها بأن تسكن وإياه ، فلم تمانع وانتقلت للحال إلى مسكنه .

وإذ علم رؤساء الكنيسة بفعلته هذه ثارت ثائرتهم وتساءلوا كيف يبيح قس لنفسه الزواج بفتاة يهودية ؟ فطردوه من الكنيسة وحرموه من لقب قس ومنعوا عنه كل مساعدة وألصقوا به شتى التهم ...

أما أهل الفتاة فقد حنقوا جداً على فعلتها هذه وقالوا كيف تبيح فتاة يهودية لنفسها أن ترتمى فى أحضان قسيس روسى كان فيما مضى من الأيام ضابطاً فى الجيش القيصرى ، وساهم فى أعمال الاعتداء على اليهود ، واغتصب نساءهم وقتل رجالهم ؟ ...

وبعد مضى ستة أشهر على حياتهما المشتركة أحس جريجورى بألم فى معدته وتبين له أنها قرحة ، فلزم الفراش وكانت كلارا تشتغل وتقدم له القوت ، ومرت بها أيام لم تعمل فى أثنائها فكانا يقتاتان بالشاى والخبز فقط ، ولما اشتد عليه المرض نقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية ، وتطوعت الفتاة بنقل دمها إلى جسمه فلم تنجح العملية ، ومات ذلك الشيخ الذى أحبته كلارا بكل جوانحها ...

لم يترك جريجورى لزوجته أو لخليلته من حطام هذه الدنيا سوى الوصية التالية : « أنا جريجورى فون فيخت ، قس فى الكنيسة الروسية ، أوصى بأن ينتقل كل ما فى هذا البيت من أثاث — سريران ، وخزانة ، وطاوله ، وكرسيان ، وأدوات منزلية — إلى السيدة كلارا هاينز وذلك مقابل ما قدمته لى من خدمات أثناء مرضى ! »

وجرى مرة حديث بين « زيد » وكلارا حول الدوافع التى حدت بها إلى معاشرة ذلك القس فقالت وهى تذرف الدمع بغزار من مآقيها ، إننى أحببته لأدبه وعلمه ... إننى عشقته لخبرته وبعد نظره . لقد تهافت على عدد كبير من الشبان من أبناء جنسى ورفضتهم كلهم ، لأننى لم أبحث عن مال ... أو جمال ... أو قوة جسدية ، إننى بحثت عن رجل يشبع نهمى الروحى ، ويرضى مطامحى الأدبية والفنية ، فعثرت عليه فى نهاية الأمر فى شخص القس جريجورى .! ...